المقال السابع

طب روما

بينما كان مجد بابل ومصر واليونان يحتضر، بدأت تتحدد صورة دولة روما الفتية، التى قدر لإمبراطوريتها، بحكم تنظيم جيوشها، وإحكام قبضتها، السيطرة على العالم المعروف من شمال أوربا إلى شبه جزيرة العرب، ومن المحيط الأطلسى إلى فارس.

غير أن تاريخ طب هذه الدولة أصيب بإهمال شديد من جهة المؤرخين، للعقيدة بأنه لا يزيد عن أنه نقل مشوه لطب (العهد الهيلنستى).

وتطلق لفظة (هيلنستى) - تمييزًا عن لفظة (هيليني) - على كل مظاهر الحضارة (المتهلنة) المنتشرة فى العالم، من الهند إلى غرب البحر المتوسط، بعد وصول الحضارة (الهيلينية) إلى ذروتها فى عهدها الذهبي، وعندما أصبحت اللغة الإغريقية اللغة الدولية، بفضل فتوح الإسكندر، ونهضة الإسكندرية، وانتشار علماء الإغريق فى شتى بقاع العالم. وقد اختلفت تلك الحضارة عن الحضارة الإغريقية الأصيلة بتلونها بلون كل بلد دخلته.

وقد نشر (سكاربورو)(١٤٠) أخيرًا مؤلفًا جديرًا بترحيب كل من يهمه تاريخ الطب القديم، ويزيدنا رغبة فيه أنه أول كتاب تناول هذا الموضوع بعد مؤلف (كليفورد ألبوت): الطب الإغريقى فى روما(١٤١). أى أن الموضوع أهمل ٤٨ سنة.

وقد شهد جالينوس (انظر المقال التاسع) باضمحلال التفكير العلمى فى هذا العهد وانحلال أخلاق الأطباء، وأورد هذا فى الباب الأول من مؤلفه فى النذير (Prognosis) حيث حمل على روما عامة وأطبائها بوجه خاص، ورماهم بالسطحية، لإغفالهم سير المرض الزمني، وعدم تجاوزهم العارض الحالى للوصول إلى الأسباب الأولى أو إلى النظريات العامة.

إلا أن العالم الإيطالى (باتزيني)(١٤٢)، دفاعًا عن سمعة مواطنيه القدامى، حمل أخيرًا

على الاتجاه الذى لا يرى فى حضارة إيطاليا القديمة سوى صورة ضعيفة من الحضارة اليونانية، والذى لا ينظر إلى تحقيقات علماء الإغريق الذين عاشوا وعملوا فى إيطاليا إلا على أنها أعمال إغريقية، وأوضح أن هذه النظرة تغفل ما كان لهؤلاء العلماء من الشأن فى بناء النظريات الإغريقية فى الكون وفى الطب، وأنها تخطئ فى تسميتهم بالإغريق وإن كانوا من سلالة إغريقية وعاشوا وعملوا فيما سماه المؤرخون باليونان الكبرى Grecia magna[١٤٣]، واستند فى ذلك إلى حجة بيولوجية فحواها أن هؤلاء العلماء يمثلون الإنسان الإيطاليوطى، أى الإيطالى المهجن، وهو الذى نشأ من تزاوج العناصر الإيطالية الأصيلة بالعناصر الإغريقية الدخيلة التى نزحت من اليونان إلى شواطئ إيطاليا فى خلال فترتين: إحداهما فى القرن الحادى عشر ق.م، والثانية فى القرن الثامن ق.م فكان بذلك مختلفا عن الاثنين وإن كان كل من التراثين طبع فيه طابعًا عميقًا، فتطعمت إغريقيته بمميزات جديدة، تجلت فى اللهجة والفن والنظم الاجتماعية والسياسية، وحولت اهتمام فلاسفته من علوم ما وراء الطبيعة والأخلاق ومظاهر الكون وآليتها، وكنه المادة وما شاكل هذه المسائل المجردة التى أولع بها الإغريق، إلى مشاكل الحياة اليومية وكنه الحياة، وخواص المادة الحية، وتركيب المادة، وكلها مشاكل تلائم ميل الإيطاليين إلى نواحى الحياة العملية، وانتهى (باتزينى) إلى أن الجميع، حتى فلاسفة القدامى ومؤرخيهم أمثال (بلوتارخ)(١٤٤)، أدركوا الفارق بين الاثنين. أما طب هذه الحقبة فقد نعته (باتزينى) بأنه طب إغريق مصطبغ ببعض الخصائص الايطالية.

يستهل مؤلف (طب روما) أول أبوابه فى أصول روما) بدراسة سريعة لنشأة الطب فى أيطاليا، قال فيه المؤلف إن الطبيب ما هو إلا إنسان عصره، يؤمن بما يؤمن به معاصروه، ولذلك فإنه لا غنى فى بحث طب أى عهد من العهود عن دراسة هذا الإنسان وصورة الكون التى كان يتصورها.

ولقد كان أول سكان إيطاليا من المزارعين المؤمنين بجمهرة من الآلهة أو المبادئ تقطن كل أجزاء الكون، صغيرها وكبيرها، فكانت نتيجة هذا التصوير أنهم - على سبيل المثال - اعتقدوا بادئ ذى بدء بأن الرياح تحمل قوى روحانية، وبالتالى بأن الآلات الطبية هى بذاتها القوى العلاجية(١٤٥). إلا أنهم عندما التقوا بالشعب الإتروورى(١٤٦) الذى نزح إليه من الشرق مصطبغًا بالأديان الإغريقية التى خلعت الصفات

البشرية على الآلهة، تحولوا إلى الإيمان بأن الآلهة هى أداة تلك القوى الروحانية الخفية.

ولتأليههم كل مرافق الحياة وسبلها، أمسى المرض فى أعينهم مظهرًا من مظاهر غضب الآلهة، فكان من المنطق - للوقاية من الأوبئة وللتخلص منها - أن يدعو مجلس الشيوخ إلى الصلوات بصفتها أردع طرق محاربتها، وبما أن كل وباء ينتهى نهاية طبيعية، اعتقدوا عند زواله أنهم أدوا بهذا واجب التشفع والاستغفار على أتم وجه، دون البحث عن الأسباب الحقيقية لنشأة الوباء أو زواله.

ثم إن النصوص الرومانية تحدثنا عن عدم وجود أى أطباء فى روما، وعن ممارسة رب البيت الطب فى داره، مبتعدًا كل البعد عن النظريات الطبية التى شغف بها الإغريق، ولعل هاتين الميزتين، أى الإيمان بأن المرض إنما ينبع عن الآلهة، وممارسة نوع من الطب المنزلى الشعبى، هما اللتان أضفتا على الطب الرومانى صفاته الخاصة.

فمن أمثلة هذا الطب الدينى الشعبى الضيق الأفق، أنهم كانوا يقيمون الأضرحة المقدسة لآلهتين مختصتين بالولادة، أسموا إحداهما Prorsa أى المجىء بالحوض، والثانية Postverta أى المجىء بالرأس، وأنهم بادئ الأمر، أهملوا التشخيص والحمية والتكهن بمآل المرض (أى النذير)، وهى الأوجه التى اهتم بها غيرهم من البدائيين، واكتفوا بالتوسل إلى الآلهة ولقبوها - تبعًا لنظرتهم المنزلية للطب - بلقب الأب أو الأم، وهذا أمر يشير إلى تشبيه سلطة الآلهة بالسلطة الشرعية التى يتمتع بها الوالدان على أولادهما.

أما ممارس الطب المحترف فكان شخصًا من أسفل الطبقات، يلم بعض الإلمام بخصائص العقاقير، التى كان فيما عدا ذلك يناولها عاهل الأسرة، ومما يدل على أثر الحضارة الريفية على الطب أن أهم العقاقير كان الصوف، أى صوف الخراف، بعد خلطه بالعسل أو البيض أو بعض النباتات، كما أن الدليل على أثر الدين أو السحر فى هذا الطب هو أولا وصف هذه المواد بنسب ثلاثية - ومعنى رقم ٣ السحرى غنى عن البيان - ثم دعم العلاج الدوائى بالترانيم والتعاويذ التى كان قوام أكثرها ألفاظًا مجردة من المعنى، تستمد قوتها من شكلها الصوتى وإيقاعها(١٤٧).

وإلى هذا فقد وجد فى طب روما مركب (أتروري) تسلل إلى حضارتها، وتمثل فى بعض الآلات الموروثة عن الإغريق، وفى فن العمارة الصحية، وبصفة خاصة فى فن

التكهن بوساطة تفحص أكباد القرابين، وهى عادة نبتت فى بابل فى عهد سارجون الأول(١٤٨)، ويبدو أن مردها إلى العقيدة بأن روح الآلهة تتقمص الذبيحة المهداة له فتبدى نياتها فى أعضائها.

ومع أنه كان لروما هذا الطب الخاص قبل دخول النظريات العقلانية الصادرة عن الإغريق فيه، وهو طُب افتقر إلى أى تنظيم ولا يمكن وضعه فى إطار واحد، فإن الرومان اللاتين الذين جاءوا بعد الأتروريين، استطاعوا بفضل ما اتسموا به طوال تاريخهم من القدرة على التوفيق والاقتباس، أن يتمثلوا الطب الإغريق كما تمثلوا الطب الأتروري من قبل، وهذا عندما قدرت لهم الغلبة على الأتروريين، وكان هذا حوالى سنة ٥٠٠ ق.م.، وقد أسرعت عملية تسلل الطب الإغريق، بعد أن كانت بدأت فى بطء من قبل، وتلاشت بواقى التأثيرات الأترورية إلى حد كبير عندما هُزم الأتروريون فى معركة بحرية ضد إغريق سيراكوز سنة ٤٧٤ ق.م.

وتروى الأساطير أن الطاعون تفشى فى إيطاليا فى ذلك القرن، وأن التوسلات إلى الإله (أبولو) هى التى أخمدته، فاتخذ هذا الإله شكل الطبيب الإلهى

ثم عاد الوباء فتفشى فى روما ثانية فى سنة ٢٩٥ ق.م.، وكان الرومان قد علموا بالنجاح الذى حازته معابد إله الطب الإغريق (أسقلابيوس)، فشيدوا لهذا الإله معبدًا فى جزيرة وسط نهر التبر بروما (انظر صفحة ١٧١) ورسخ الإيمان بهذا الإله عندما زال الوباء.

وتبع هذا هجرة الأطباء الإغريق إلى روما إذ كانت منزلة أثينا قد اندثرت وارتفع نجم روما فى سماوات العالم المعروف، وفى جو هذا التمازج الحضرى انقسم ممارسو الطب فى عهد الحروب الأرضية إلى ثلاث فئات : الطبيب المختص، ورب الأسرة، والممارس الأتروري - اللاتينى، الذى كان يعتمد على السحر بعد خلطه بالطقوس (الهيلينية) الخاصة بالإله (أسقلابيوس)

ونظرًا لأهمية الطب الإغريق فى نشأة الطب الرومانى، تدرج المؤلف (سكازيورو) فى الباب الثانى، إلى الصورة الخلفية للطب الرومانى وهى التى رسمها له الطب الهيلينى، وبخاصة (مدرسة الاسكندرية)، التى جذب إليها عاهلوها البطالمة علماء العالم بما قدموه

إليهم من الجوائز والتشجيع، والتى جمعوا فيها كل ما ألفه علماء القدامى وترجموه إلى الإغريقية، إلا أن جل هم أطباء الاسكندرية - تبعًا للمؤلف - كان جمع المال والاطلاع على النصوص دون نقدها، حتى أنهم أصبحوا أول أهداف الكتاب والرواة الهزليين.

غير أن فى هذا تعسفًا واضحًا، حيث إن العلماء السكندريين نالوا من الصيت والشهرة قسطًا وافرًا ووصلوا إلى كشوف خطيرة. وقد برز فيهم علمان من أعلام التاريخ أولهما (هيروفلس) المنتمى إلى مدرسة (قو)، الذى عنى بالتشريح وامتاز بوضوح التفكير وباستعمال المنطق على عكس النزعة التجريبية المحضة التى سادت جزءًا هامًّا من تفكير عصره، والذى آمن بنظرية الأخلاط، وفقا لنشأته فى «قو» مسقط رأس (أبقراط) واضع قوانين الاخلاط، وثانيهما (إيرازستراتس) الدارس على أساتذة «قنيدوس»(١٤٩)، منافسة «قو» الذى استمد أسس معرفته من دراسة وظائف الأعضاء أكثر من عنايته بشكلها، وهذه هى الدراسة التى أسندت أهمية قصوى للنفس.

وقد تقدمت معرفة دورة الدم على يد هذا العالم حتى قربت من الكمال (وهنا أهمل المؤلف فضل قدامى المصريين فى هذا الصدد(١٥٠) وقد كانت هذه الحقبة عهدًا تعددت فيه المدارس والعقائد الطبية، وانقسمت إلى : تلك التى اكتفت بملاحظة الأعراض وحسب وهى المدرسة التجريبية، وتلك التى بنت طبها على نظريات تعقلية مجردة(١٥١).

هذا فيما يخص الاسكندرية، أما فى بقية العالم (الهيلينى)، فقد فقد العلم المحقق مركزه ولا سيما بعد تفتت الإمبراطورية، وعاد الشعب إلى الشعوذة والسحر وطب المعابد الذى كان له تاريخ طويل فى العالم الإغريق. وبذلك دخل الطب الإغريق روما بمركبيه : العقلى والروحانى، بعد تطور طويل أدمج فى خلاله طب (أبقراط) فى نظريات الفلاسفة الأيونيين(١٥٢) وفى تعاليم التشريح ووظائف الأعضاء السكندرية.

وكانت نتيجة هذا التعدد فى المدارس انعدام الثقة فى الأطباء، كما غادر الإسكندرية عقب هذا، الكثيرون من العلماء السكندريين، من نحاة وفلاسفة ورياضيين وموسيقيين ورسامين وأطباء.. إلخ ولا سيما عندما اضطهدهم بطليموس الشرير (كاكرجيتس)(١٥٣) فنشروا العلم حول البحر المتوسط.

غير أن الغموض ما يزال يعم الحقبة التى راقت فيها الحضارة الهيلينية فى أعين

مصر وصقلية وجنوب إيطاليا وآسيا الصغرى والهند، واتخذت فى كل منها شكلا وطنيًا خاصًا. والذى نعرفه أن روما - بطبيعة الحال - هى التى ورثت أكبر قدر من (الهيلينية) وبخاصة بعد أن ضمت بلاد الإغريق إلى ممتلكاتها.

وكانت طبيعة روما فى البلاد المفتوحة تميل إلى الاندماج أكثر من ميلها إلى التعالى بهيبة الفاتحين، ولذا فإن الطب الإغريقى أهدى طب روما تماسكًا وقوامًا كان ينقصانه، وصب الرومان التقاليد الإغريقية فى قوالب جديدة، وطبقوها فى خدمة الصحة العامة تطبيقًا يلائم احتياجاتهم.

يتناول الباب الثالث أطباء الإغريق الذين حلوا بروما، وموقف الرومان منهم بروما، وموقف الرومان منهم ومن ثقافتهم، وكان أول هؤلاء (أرخاجاثوس)(١٥٤) الذى وصل إلى روما سنة ٢٩٠ م. وتبعه (أسقلبيادس)(١٥٥) الذى حاز نجاحًا هائلا لتمثيله الاتجاه اللاتينى العملى البعيد عن النظريات، ولبراعته فى فن الاستماع إلى شكاوى المرضى، وكانت هذه النزعة التجريبية نزعة الرومان أنفسهم التى موهوها بقشرة رقيقة من العلم، لم يكن لهذه النزعة أى وزن فى موازينهم، حتى أنهم فى عهد الإمبراطور (تراجان)(١٥٦) كانوا قد محوا كل الاختلافات المدرسية بينهم. ولذا فإن ما يبدو لديهم قبولا تامًا للطب الهيلينى لم يكن فى الواقع إلا تفرقة بين شطريه : العملى الذى اقتبسوه والنظرى الذى أهملوه.

هذا مع احترامهم لفلاسفة الإغريق ونظرياتهم، وقد تركوهم وشأنهم فى (قو، وأثينا، والاسكندرية)، حيث استمر التعليم النظرى قائمًا، وظلت المدارس المختلفة (انظر الباب السادس) تتجادل وتتبادل الشتائم والهجمات.

إلا أن نزعة الرومان العملية، وبعدهم عن التفكير النظرى، أضفيا على هذه النظريات تشابهًا تجسم فى المدرسة (الأصطفائية eclectic)، التى عمت العالم الطبى فى نحو عام ١٠٠ م. وأخذت من كل مدرسة ما راقها. وكان أبرز أعضائها (جالينوس) الذى سنفرد له بابًا فيما بعد. وقد أدت هذه النزعة الأخيرة بمصنفيهم إلى وضع موسوعات طبية غير علمية، سالكة مناهج عملية صريحة لفائدة المزارعين وأصحاب المزارع وأمثالهم، بقصد سد حاجاتهم اليومية بأساليب مبسطة.

وكان أول من وضع مثل هذه الموسوعات (كاتو) (١٥٧)، الذى أراد فى مؤلفه مناهضة الأحزاب السياسية ذوات الميول (الهيلينية)، والتشهير بالطب (الهيلينى)، لا سيما بعد انتصار بلاده على فيلبس الخامس فى خلال الحروب المقدونية الثانية، وكان شعور (كاتو) نحو الإغريق مزيجًا من الاستنكار والإعجاب، والحقيقة أن تفهم عقلية (كاتو) حير القدامى كما حير المحدثين، فقد وصف، فى كتابه عن الزراعة، الطرائق الرومانية، فى حين نظم مزارعه على نسق (هيلينى)، وأشرف بحكم وظيفته على بناء أول باسيليقا(١٥٨) بنيت على طراز (هيلينى) فى روما، وأوصى ابنه بمجافاة الإغريق، هذا وكان يتباهى بأنه ألم بمؤلفاتهم الطبية، وزوج ابنه من أسرة مائلة إلى (الهيلينية). ولذا يبدو أنه لم يناهض الإغريق إلا بواعز العاطفة أو السياسة، وهذا مع إعجابه بهم.

وقد تبع (كاتو) من المصنفين الموسوعيين Encyclopedists الذين جمعوا موسوعات منظمة أظهروا فيها قدرتهم على التوليف بين المتناقضات، (لو كريسيوس(١٥٩)، وفارو(١٦٠)، وفتروفيوس(١٦١)، الذين اقتبسوا الألفاظ الإغريقية بعد أن ألبسوها رداءًا لاتينيًا، وحذوا حذو (كاتو) فى تبسيط الطب لجعله فى متناول الشخص العادى، ومثال ذلك قول (فارو) إن الطبيب قد يفيد أحيانًا، ولكن راعيًا ذكيًا يستطيع سد أغلب الاحتياجات الطبية، وتعرض (فتروفيوس) المعمار للطب فى موسوعته عن الفن المعمارى.

أما (سلسوس(١٦٢) فإن الشهرة التى نالها جعلت العالم يعده طبيبًا ممارسًا أحيانًا، وكاتبًا فذًا أطوارًا، وقد لقب (بسيسرو(١٦٣) الطب) فى نظر الآخرين، وبما أن مؤلف (سلسوس) يعد اليوم أفضل مرجع للطب الرومانى، فإن هذا الكتاب يمثل خير تمثيل الأرسطقراطى الرومانى ذا الذهن الحاد القادر على إبداء النصح السديد فيما يخص الرياضة والراحة والحياة العامة.

وقد كان آخر الموسوعيين بلينى(١٦٤)، بطل النزعة التجريبية الرومانية، المناهض للنزعة التأملية الإغريقية، وهو الكاتب الذى لم يكل صاحب موسوعة (التاريخ الطبيعى)، وخير مثل لحب الرومان للتوفيق بين المذاهب المختلفة، وإن كان عاجزًا عن نقد ما جمعه، وعن تمييز الحقائق عن الخرافات، إذ إنه كان سريع التصديق وخلط ملاحظاته المبتكرة مثلا عن حدوث حمل على حمل Superfaetation وتغير الجنس،

obeikandl.com

والأسقربوط، بخرافات واضحة. وخلاصة الأمر أن الطب أصبح فى هذا العهد قائمة من (الوصفات) لا أكثر.

وبعد هذه النظرة العامة إلى طب روما وما اتسم به نتيجة لأسلوب الرومان الخاص فى التفكير، تناول المؤلف بعض الأوجه الخاصة به، وأولها تنظيم العلاج فى الجيوش التى فتحت كل العالم المعروف حينذاك، وأدلى برأيه - مع ما قيل عن حسن تنظيم علاج الجنود - أن الطب بين المعسكر لم يختلف عنه بين غيرهم وأن سماء الأبوة والأرسطقراطية والمنزلية نفسها ارتسمت فيه، إذ إن الجنود كانوا يعالجون جروح بعضهم بعضًا، وأن القواد كان لهم من الخبرة ما يسمح بمراقبة هذا العلاج لكونهم من أفراد الطبقة الحاكمة الذين اعتادوا علاج أهليهم وتابعيهم، وأن هؤلاء القواد كانوا يصطحبون أطباءهم الخصوصيين. وتشهد بهذا بعض النصوص التى يشكر فيها القواد لقيصر عنايته الخاصة بهم ووضعه طبيبه الخاص وناقلته الخاصة ومطبخه، وحمامه، تحت تصرفهم لدى مرضهم.

ثم أن الغرض من علاج الجنود اقتصر - فى رأيه - على الحرص على سرعة إعادة الجندى الجريح إلى ميدان القتال، أما المصاب بالإصابات الخطيرة، فكان يترك وشأنه، حيث إن آليه الحرب الرومانية كانت تؤدى إلى خسارات طفيفة فى جانب المنتصرين وضاع كل شىء فى جانب المهزومين.

أما لعلاج المرضى من الجنود - بتمييزهم عن الجرحى - فإن روما خصصت لهم معاهد أطلقوا عليها «معاهد الوهن والاعتلال Valetudinaria» وكان يعالج فيها كذلك بعض المصابين بالجروح البالغة، وكان العلاج فيها يوكل إلى الجنود الملمين بشىء من الطب.

وقد أدت قدرة الرومان على مواجهة مشاكلهم بحلول مباشرة واقعية، إلى تقدم مرموق فى المنشآت الصحية العسكرية، فقد كشف فى جميع أنحاء البلاد التى فتحوها عن عدد كبير من المستشفيات المرسومة رسمًا هندسيًا لا غبار عليه، المجهزة بمصارف للمياه وشتى سبل الحياة الصحية.

أما فى المدن فإنهم لم يفكروا قط فى ابتناء المستشفيات، وبقى العلاج منزليًا، إلا أن

حبهم للترف وعنايتهم بالصحة العامة أوحت إليهم حلولا ممتازة فى بناء المدن فقد كانوا يختارون لها المواقع فى دقة متناهية، مراعين فى هذا موضعها من الرياح - وتوفير المياه الصافية النقية، والبعد عن المستنقعات.. إلخ، وابتنوا مساقى تجرى فوق قناطر لجلب المياه عن بعد، وهو ابتكار حقق كسبًا كبيرًا، إذ إن أنابيب الرصاص ضعيفة وتسبب التسمم بهذا المعدن، وأن أنابيب البرونز باهظة التكاليف، وصنع الأنابيب الواسعة القادرة على تحمل ضروب الضغط الهائلة كان فوق قدرة مهندسى ذلك العصر، ومن ابتكاراتهم الأخرى، مصارف المياه(١٦٥) والحمامات الخاصة والعامة، وقد نالت هذه الحمامات منهم عناية فائقة، فقد جهزوها بالمغاطس، وبالحمامات فى الهواء الطليق، وبأساليب لتدفئة المياه تدريجيًا، وبالمراحيض النظيفة، فلقد طبقوا فى كل هذا مبدأ (سلسوس) بأن الاحتفاظ بالصحة أجدى وأنفع من الالتجاء إلى الطب.

وقد عوضتهم هذه العناية عن ضعف طبهم الذى اقتصر على علاج الجروح السطحية البعيدة عن الرأس والبطن، وأهمل علم التشريح، وكان هذا من دواعى سخط (جالينوس) على زملائه عندما ذكر بعض أخطائهم الجسيمة. ومع ذلك فقد حسنوا الآلات الجراحية، وبدءوا يصنعونها من الحديد بدلا من البرونز.

من العجب - وإن كان هذا نتيجة حتمية لمعتقدات الشعب الرومانى فى الطب - أن نظرة الجماهير إلى الأطباء كانت - اللهم إلا باستثناء بعض الأطباء المعدودين - نظرة سخط وسخرية تجلت فى الهجويات والتمثيليات الهزلية. وهى، وإن أمكن ردها أحيانًا إلى مرارة شخصية يكنها المؤلف للأطباء، إلا أنها تدل عامة على الخوف والتشكك اللذين سادا العلاقات بين الطبيب وبين جمهور احتفظ - بحكم تكوينه ووراثته - بحرية الرأى حتى بعد طلب النصح الطبى.

ومن دواعى هذا الجو العدائى : جهل أغلب الأطباء، وشيوع الدجل بينهم، وارتفاع أتعابهم، والمشاجرات العلنية بينهم لاكتساب المرضى، وادعاءاتهم الرنانة.

إلا أنه وجد بين جمهرة هؤلاء بعض الأطباء الممتازين أمثال (جالينوس) الذين وصلوا إلى روما، إما أسرى حرب يباعون ويشترون، وإما معاتيق أحضروا بتشجيع من الأباطرة. ولكنهم كانوا قلة وقصروا خدماتهم على كبار القوم ووجهائه، ولم يتخطوا

الدوائر الأرسطقراطية. ولذا فإن علينا، ونحن نناقش مركز الطبيب من المجتمع الرومانى، أن نميز بين الطبيب (الهيلينى) والطبيب العادى، وقد كان المواطن الرومانى - لعدم استعداده للفلسفة - ينظر إلى هؤلاء (الهيلينيين) بعين الأزدراء والشك.

وقد تطرق التمييز بين فئتى الأطباء السابق ذكرهما إلى التعليم والعلاج، فقد ذهبوا إلى أن العبيد من الأطباء يتعلمون ما يكفى لعلاج زملائهم من العبيد، وأن الأحرار منهم يعالجون باستخدام العقل والتأمل والخبرة، وقد قسم (سلسوس) الطب إلى ثلاثة مناهج : الحمية، والعقاقير، والجراحة، وأنكر أن استخدام المنطق يؤدى إلى المهارة، بل أكد أن الخبرة وحدها هى التى تنجب الطبيب البارع، وكان هذا متمشيًا مع اتجاه الرومان الذى عد المعرفة بالطب جزءاً من تكوين الإنسان المثقف.

واتخذ التعليم الطبي - نتيجة لهذه الاتجاهات - صورة التدريب المنزلى من الأب إلى الابن، مستقلا عن المدارس أو دور الكتب، فكان من الطبيعى أن يعتنق الابن مذهب أبيه، فيلقب نفسه مثلا بالجزمى أو التجريبى، دون المبالاة بحقيقة هذه التسميات، فأصاب التعليم من جراء ذلك قدر كبير من التخبط، وراح تابعًا للمصادفات والأهواء، واستغل البعض هذه الفوضى فاحترف التعليم دون تأهيل له واصطحب تلاميذه فى جولاته، وأسدى لهم التعليم فى حانوته، وادعى البعض الأخر إمكان تعليم الطب فى مدى ستة أشهر؛ فجعل أطباء من الطهاة والإسكافيين وقد نال (جالينوس) من هؤلاء بعنف واتهمهم بكل قبيح حتى الأمية.

ومع هذه الفوضى وصل بعضهم إلى درجة لا بأس بها من المعرفة، ولجأ هؤلاء إلى النبض فى التشخيص، واستطاعوا تمييز الجذام والصفرة والدرن، وأدركوا علاقة الجهاز العصبى بالشلل.

وفى باب العلاج صنف (ديوسقريدس(٤٠)) مؤلفه (فى المادة الطبية)، حيث وصف العقاقير التى جمع معرفته بها من سفرياته مع جيوش (نيرون)، واهتم (جالينوس) بالكشف عن المغشوش منها، وتمادى الأطباء فى التعقيد فى الوصفات حتى أنهم ركبوا الترياق من سبعين مفردًا.

وانتهت دراسة (سكاربورو) بالتأمل فى مدى فاعلية الطب الرومانى فى مجتمعه، وقال

دفاعًا عن هذا الطب : إن حكم روما على مواطنيها، تدخل فى حياة كل واحد منهم، وزوده بالمياه النقية والحمامات والمرافق ووسائل التخلص من الفضلات.. إلخ، وهى ميزات سمحت للإمبراطورية بالبقاء، وأدخلت الشعور الإنسانى فى المشاكل الطبية والاجتماعية وتمشت مع الاعتراف بالحق فى حرية الرأى، اللهم إلا فيما تناول أسس الإمبراطورية السياسية. وقد اتسم الطب فى هذه الحقبة بالشعبية نفسها، وعدم التقيد بالطبيب المحترف، وباعتراف الأطباء على السواء بالسحر والفلك وطرق العلاج المماثلة، وآمن الأطباء بالاحلام والفأل والطلاسم، إلى جانب ممارستهم لنوع من الجراحة والعلاج لم يخرج عن المفاهيم العلمية السائدة، وأبدوا قدرة عجيبة على إدماج تعاليم (أبقراط) بتجارب الإسكندرية، وبالطب الأرسطقراطى المبسط، والفلك، والسحر، والتقاليد الشعبية.

على أن هذا الطب - بفضل اتجاه تفكير الرومان الواقعى - عرف حدوده واعترف بوجود أمور لا يفهمها العقل ولا يحلها الجدل الكلامى، مثال ذلك أن (جالينوس) آمن بوجود أمور لم يدركها، وإن كان يعتقد أن شكلا ما من أشكال الطب يستطيع توضيحها.

وهنا تطرق المؤلف إلى مشكلة نفسية، وهى تفسير أسباب اللجوء إلى الطبيب، فذكر نظرية (موريس) النشوئية[١٦٦] التى ترى الطب منحدرًا عن عادات النظافة الجماعية بين كبار القرود، والتى تبدو أول مظاهرها فى عناية الحيوانات المتبادلة ببشرتهم، ورأيه أن أغلب التوعكات الخفيفة كالزكام والصداع، ليست صورًا مخففة من أمراض خطيرة، ولكنها تختلف عنها اختلافًا جذريًا، لأنها تمثل بحث الحيوان عن العناية الجماعية التى يحتاج إليها، وإذن فإن تعيين العقار لعلاجها لا محل له فى علاجها، ولا فارق فى علاجها بين الطبيب العلمى وبين الطبيب السحرى.

وإذا أخذنا بهذه النظرية، فإن الطب الرومانى يبدو مثالا ناجحا لعلاج أمراض عدة قد يصفها الطبيب بالتفاهة، إلا أنها تمثل أغلب التوعكات، ويعتمد علاجها على تفهم الصور الخلفية للمجتمع ولذهن المعاصرين، وعلى درجة من ثقة الطبيب بنفسه كالثقة التى اتسم بها أمثال (جالينوس، وأريتيوس)، ولذا فإن الطبيب الرومانى، سواء أكان من السحرة وبائعى التمائم، أو من العلميين وواصفى العقاقير كان نجاحه مبنيًا على تفهم

المشاكل الشخصية وحلها حلولا مقبولة فى إطار العصر، وقد أتم (جالينوس) هذا البناء المخضرم بجمعه كل ما وجده نافعًا من التقاليد الكلاسية فى نظام متكامل ظل المثال الأعلى للطب حتى عهد النهضة الذى شاهد بعث علم التشريح فى القرن السادس عشر وحتى عهد تطور الكيمياء والفيزياء الحيوية فى القرنين الأخيرين.

ومما يبرهن على النظرة المزدوجة إلى المرض، فى رأى المؤلف، أن (بلوتارخ(١٤٤)) حمل على الخرافات لأنها تفسر كل الأمراض على أنها من هجمات الأرواح، وإن لم ينكر أن بعض الأمراض قد ينتج عنها، وهذا معناه أن علم الطب هو، من جهة التفرقة بين الأمراض ذوات الأسباب الاعتيادية وبين الأمراض الناتجة عن غيرها، ومن جهة أخرى العناية بتفاصيل الحياة اليومية كالمأكل والمشرب والاستحمام..، وإلى ذلك يضيف (بلورتارخ) أنه يجب على الإنسان أن يعرف نفسه، ونبضه، ويدرك ما يلائمة، وألا يزعج الطبيب بمثل هذه الأمور البسيطة.

إلا أن هذه النزعة لم تمنع تجار العقاقير من ادعاء الطب، ولم تحد من تمادى بعض المرضى فى طلب العناية الطبية، ولم تقف فى سبيل العلاج بمعابد (أسقلابيوس) التى أسندت إليها قوى شافية غامضة - وربما كان هذا بسبب اختيار مواقع تمتاز بأجواء شافية لبناء تلك المعابد.

وإذا كان بعض الرومان، أمثال (سيسرو، وسكستوس إمبركوس،(١٦٧) ولوسيان، قاوموا الطب الروحانى فإنما فعلوا لاعتقادهم بأن مداعبة هذه القوى التى لم يشكوا البتة فى حقيقتها ولا فى قوتها، ليس من شأن الإنسان.

وفى كل هذا نرى الطريقة التى بنى عليها العلم الرومانى وكيف أنه لم يتبع منهجاً علميًّا محدداً، ولكنه دمج الديانة بالفلك والتشريح والفسيولوجيا وتأملات روحانية، وافتراض قوى خفية دون محاولة تفهمها.

وقد نجح المؤلف فى جمع معلومات متناثرة عن هذه الحقبة المهملة، ولكنه رسم صورة عامة لطب هذا العهد تبدو بين السطور على غير ما تبدو عليه فيها.

ويؤخذ عليه أنه لم يزود القارئ فى المتن بتراجم للأطباء الذين ذكرهم، ولو مختصرة، ولا بتفاصيل عن حياتهم اليومية، أو ابتكاراتهم، ولم يميز تمييزاً كافياً بين أطباء

أوائل الجمهورية الرومانية فى القرن الثامن ق. م. وبين أطباء أواخر الإمبراطورية فى القرن الخامس أو السادس الميلادى، وتركهم أسماء عائمة فى محيط ألف سنة أو تزيد.

وقد دفعه تخصصه فى تاريخ روما وتقديره لحضارتها - التى لا شك فى أنها جديرة بالإعجاب - إلى امتداح طب أجمع المؤرخون على انحطاط مستواه وانحلال العنصر العلمى فيه، إلا فى كتابات طبيب واحد : وهو (جالينوس)، وإن كان نشأ فى برجامون بآسيا الصغرى، ودرس بها ثم بالاسكندرية، ولم يرحل إلى روما إلا مؤخراً، فلم يمت إلى روما إلا بصلة المعاصرة وحسب.

ولعل تفسير هذا التحيز أن نظرة مؤلف هذا الكتاب، وهو متخصص فى التاريخ العام، تختلف عن نظرة الطبيب العلمى، أو المؤرخ المعنى بسيرة العلم وتطوره، اللذين يبحثان فى تطور العلم بالطب. أما أن المؤلف الفاضل وجد فى تربيت الكتف (أى الطبطبة عليه) ووصفات أرباب البيوت، وخزعبلات الدجالين، وتمائم السحرة، ووسائل علاج الشعب البدائية، قدراً من الإنسانية يفوق فى فاعليته الطب العلمى، فإن فى هذا الرأى خطراً جسيًا.

إن الطب حقًّا علم ومعاملة، ولكنه لو فرض عليه أن يقتصر على أحدهما، فإن العلم بمفرده أجدى فى علاج الأمراض العضوية من مجرد المعاملة مهما كانت فاضلة(١٦٨)، هذا فضلا عن أن ترك تقدم العلاج فى أيدى كل من يتوسم فى نفسه ملكة التطبيب، وعدم الالتزام بالمناهج العلمية، من شأنها إغلاق الباب أمام التقدم، بل تقهقر أكيد، إذ إن تاريخ الأمم أثبت أن الحضارات التى لم تثمر جديداً لم تستطع الصمود أمام الحضارات المزاحمة، هذا على ألا تسعى الأمم إلى إنتاج الجديد فوق الجديد وحسب، بل على أن تحرص على التجديد المستمر فى صميم تكوين تراثها، وإلا فإن الأطباق المضافة إلى الأطباق سرعان ما تتخم الأذهان وتخنقها بمجرد ثقلها.

وقد يكون عجز روما - وهى همزة الوصل بين العالم والقديم والعصور الوسطى - عن الابتكار هو سبب ركود الطب بل تقهقره قروناً طويلة، إلى أن قدر له البعث بفضل الإسلام.

ولذا فإن تحمس (سكاربورو) لطب روما ينفى نفسه، إذ إنه يبرز بوضوح أوجه نقصه

ونواحى تأخره، ولا تفيد الحجج الفلسفية التى استند إليها للبرهنة على عكس هذا، وتشبيهه سلوك المرضى بسلوك القرود.

وقد كرر فى كتابه هذا نظرية سبق أن سردها فى مقال عن طب الجيوش الرومانية(١٦٩)، وهو فى تقديمه الحجة لها بدا أشبه بالمحامى المدافع عن دعوى، منه بالقاضى المتجرد عن العواطف أو الميول، فقد أغفل ما لم يدعم رأيه حتى وإن افترضنا اطلاعه عليه، وأهمل بدون مبرر كاف ما جاء على أقلام علماء وكتاب من الرومان اشتهروا بالدقة فى التعبير والجدية فى التحقيق، كاتهامه (سيسرو)، اللغوى الدقيق ومثال الفصاحة، بعدم توخى الدقة فى الكلام، وهذا لإدخال الشك على كلمة medicus (الطبيب) التى أنكر أن تكون قد أطلقت على الطبيب.

إلا أن (نوتون) حمل على حجج (سكاربورو) بشدة فى مقال تابع(١٧٠)، فقد وافقه على عدم وجود إدارة طبية مركزية فى القوى العسكرية الرومانية من سلطتها تعيين الأطباء وتوزيعهم على فروع الجيش المختلفة، كما وافق على أن الأباطرة كانوا يصطحبون أطباءهم الخصوصيين فى حملاتهم؛ إلا أنه حذر من قبول قضاياه دون تدقيق شديد، لأسباب عدة منها أن استنتاجاته يشوبها إهمال النتائج التى وصل إليها باحثون أمثال (كازاريني، وجرموسى، وهابرلنج)، وأنه خلط فى صورة موحدة أموراً تخص عهوداً مختلفة وتمتد طوال ثمانية قرون، أى من القرن الثانى ق.م. إلى القرن السادس الميلادى، دون الأخذ فى عين الاعتبار التطورات الجذرية التى مرت بها الجيوش فى هذه المدة، من حيث تنظيمها وتكوينها.

كما أنه لم يوافقه فى وصف الـ medicus بأنه جندى نظامى له دراية بدائية بالتضميد وعلاج الجروح، إذ إن الكثيرين من الكتاب القدامى ذكروا فئات مختلفة منهم وبوبوهم حسب تخصصهم أو توزيعهم، وأكدوا أن الجيوش الرومانية فى عصر الإمبراطورية كانت تتمتع بخدمة طبية، وأن هذه الخدمة كانت موكولة إلى أشخاص دربوا تدريباً طبياً سابقاً لتدرجهم فى الخدمة، وأن هؤلاء كانوا يخضعون لأحكام تنظيمية خاصة بهم.

أما الجيش لم يستخدم أطباء مدربين على مثال (جالينوس)، فإن شأن أطباء الجيش كان شأن الأطباء المدنيين فى هذا العصر، فقد قال (جالينوس) عن نفسه : إن الأطباء

الذن نهجوا منهجه فى الدراسة كانوا نرزاً يسيراً، حيث إن تعليم الطب كان يقتصر عادة على الجلوس إلى هذا الطبيب أو ذاك، واكتساب بعض الخبرة (أما ربط مزاولة المهنة بامتحانان أو إجازات فهذا ما لم يبتكره إلا العرب).

وإلى هذا فإن هناك أدلة تشير إلى عكس نظرية (سكاربورو)، تدل مثلا على استخدام الجيش أطباء مؤهلين تأهيلا يماثل تأهيل المدنيين منهم، ثم درج الأطباء medici بعد تركهم الخدمة مع زملائهم المدنيين، ومنحهم الحقوق نفسها، كإعفائهم من الضرائب ومن بعض الالتزامات، ومنحهم مزايا معينة، مما يشير إلى أن مكانتهم كانت غير مكانة الجندى العادى الذى يرى (سكاربورو) أنه هو الذى أطلقوا عليه تسمية medicus.

ثم إن الأثبات تشير أيضاً إلى وجود نظام للتدريب الطبي المنظم داخل الجيش وإلى إعفاء الأطباء من واجب المحاربة، كما أنها تذكرهم ضمن كشوف الفنيين غير المحاربين، كالمعماريين وضباط التوريدات.

يدعو كل هذا إلى عدم الأخذ بأقوال (سكاربورو) إلا بتحفظ شديد، وربما كان سبب انحراف نظرته هو عدم إدراكه لكنه المهنة الطبية، لأنه تبعاً لما جاء فى ترجمته على غلاف الكتاب، لم يدرس فى كليات الطب إلا سنة واحدة، ومثل غير الطبيب فى التأريخ للطب، مثل المدنى إذا ناقش حروب نابليون، أو الطبيب إذا ناقش فن روما المعمارى. أما السلوك الصحيح فهو أن يشترك المؤرخ مع الفنى المتخصص فى مثل هذه البحوث.